مبدأ إرادة القوة وتجلياته على الصعيد السياسي
قراءة في المشروع الفلسفي لفريدريك نتشه*

أ/ محمـد بـن علي
أستاذ مساعد(أ)
المركز الجامعي غليزان

ملخص:

الواقع أن عبادة القوة على نحو ما دعا إليه نتشه وبعض دعاة النزعة الحربية ليست سوى تعبير عن عجزها عن استبقاء مثلنا العليا صامدة وجها لوجه، أمام هذا العالم المعادي لها، وكأننا هنا بإزاء صورة جديدة من صور الإذعان للشر والتضحية بالخير، لأن القوة بلا فكرة قوة عمياء تجري سريعا إلى حتفها، لأنها تبدد طاقاتها وإمكاناتها بعدم استخدامهما، وتوزيعها بحكمة وتدبير.

يبدو مفهوم إرادة القوة عند نتشه مفهوما مليء بالإيحاءات، يصل إلى حد الغموض عندما لا يعترف إلا بالقوة كغائية نهائية للإنسان، وهذا الأمر بالخطورة بما كان، فمشكلة الأخلاق بالنسبة له، إنما هي في الأساس مشكلة الحقيقة والتطابق مع إرادة القوة بوصفها جوهر الحياة.

الكلمات المفتاحية: القوة، إرادة القوة، إرادة الحياة، السياسة، الأخلاق، الإنسان الأعلى

---

* فريدريك نيتشه فيلسوف ألماني (1844- 1900) ولد لقس بروتستانتي وكان العديد من أجداده من جهتي الأب والأم ينتمون للكنيسة تأثر في شبابه بوحدة ألمانيا وزعيمها بسمارك ورأى فيه كمالاً للشخصية الألمانية. نيتشه من أعمدة النزعة الفردية الأوروبية حيث أعطى أهميه كبيرة للفرد واعتبر أن المجتمع موجود ليخدم وينتج أفراداً مميزين وأبطالاً وعباقرة، ولكنه ميز بين الشعوب ولم يعطها الأحقية أو المقدرة نفسها حيث فضل الشعب الألماني على كل شعوب العالم بما فيها الشعوب أوروبية. دخل نيتشه عالم الفلسفة عبر الفيلولوجيا كعالم لغوي وشاعر، مكنته دراسته الجامعية من تحصيل ثقافة شاملة. كان اهتماماته الأولي هي الكتب الفلسفية اليونانية القديمة. وكان الرافد الأساسي لكل ما سيقدمه في التفكير الفلسفي هو الفكر الإغريقي القديم الذي كان بالنسبة إليه مقياس الأشياء والذي رأى من خلاله انحطاط عصره، يعد كتاب "هكذا تكلم زرادشت" أهم كتبه.

مدخل:

لم يسبق للسياسة - عبر التأريخ - أن ابتعدت عن الأخلاق بالدرجة التي عليها الآن، فإنساننا –المعاصر- يعيش في غابة شرسة، يتصارع فيها الجميع مع الجميع، ومن يحاول أن ينأى بنفسه عن الصراع، عليه الرضا بأن يكون هو الضحية، لا وسطية، فإما أن تكون مفترِسا، أومفترَسا.

إن "نيتشه" لم يبعث من جديد، فيصور لنا العالم غابة شرسة أو ظلمة مكفهرة، لكن عالمنا هو الذي يصرخ بنا، بل يصفعنا بوقائعه المريرة التي نشاهدها كل يوم، لقد كانت "الفلسفة السياسية" فلسفة أخلاق بالدرجة الأساس، كما أن السياسة كانت فن قاعدته الأخلاق. فقد جاءت "السياسة" في رسالة "أرسطو" (حول الحكومة) كقسم تال - مباشرة - لل "الأخلاق" (وكأنه - بهذا - يشير إلى شدة التلازم بينهما) فلم يفصل "أرسطو" - كما نفعل نحن الآن - بين السياسي والأخلاقي تتضح قوة الترابط بين السياسة والأخلاق عند أرسطو، هكذا وبعد أن بدأت السياسة ملازمة للأخلاق، وصلنا الآن إلى مرحلة يعتبر فيها - عمليا - المعيار الأخلاقي عيب من عيوب السياسي المعاصر، من يلتزم به يعتبر سياسي فاشل، أصبح منطق الربح والخسارة - فقط - هو الذي يحكم عمل معظم محترفي السياسة المعاصرين، دون أي دور حقيقي للمبادئ والأخلاق والشعور الإنساني، فالتضاد والتضارب في مواقفهم، والتغير في تحالفاتهم، والتشتت في ولاءاتهم، أصبح نهجا متأصلا، فلئن كانوا على استعداد للتهالك، وإراقة ماء الوجه، والتذلل، والاستجداء؛ فهم على استعداد – أيضا - لأن يجسدوا الظلم والقسوة والقمع بأبشع الصور، هكذا ومن اجل تسليط الضوء أكثر حول هده الإشكالية سوف نعمد إلي مناقشة المشروع الفلسفي للفيلسوف الألماني فريدريك نتشه، الذي أقام فلسفة تجاي منذ البداية كل الاعتبارات الأخلاقية، ولا ترى النفع في شيء أكثر مما تراه في القوة. محاولين الإجابة عن التساؤلات التالية: **ماهي الأسباب الرئيسية لهذه الرؤية الموغلة في الحقد تجاه كل ماله صلة بالأخلاق؟ ولماذا نجد في عالمنا المعاصر الغلبة لهذه القيم في مقابل أفول قيم المحبة والتسامح؟ ماهي العلاقة القائمة بين مفهوم إرادة القوة والطريقة التي يعبر بها عن نفسه على الصعيد السياسي؟**

ان الفكر السياسي- الألماني منه على وجه الخصوص- وبعد أن تدثرت عناصره، برداء من الميتافيزيقا المتأثرة بالحركة الرومنتيكية، بدأ شيئا فشيئا ينزع عنه أطوار الغموض والمثالية، ويستبدلها بأسلوب واضح وصريح أقرب إلى الأرض منه إلى السماء، هكذا وبعد أن استأنس الناس بأفكار كانط التي حلقت بهم في سماء القانون الأخلاقي الموجه لكل ممارسة سياسية، استيقظوا على رد عنيف يقوض دعائم المشروع الكانطي الذي تولفت من خلاله

السياسة بالأخلاق، حيث كانت البداية مع ترتشكي TREITSCHKE (1834- 1896) الذي رد بطريقة أو بأخرى على مشروع السلام الدائم، الذي أرسى دعائمه كانط، إذ أنه يذهب من أول وهلة إلى اعتبار الدولة " قوة" وظيفتها الأولى تقوم على الحرب " فالقوة هي المبدأ الذي تقوم عليه الدولة كما أن الإيمان هو المبدأ الذي تقوم عليه الكنيسة.

يحاول ترشيكي في موقفه من الحرب والسلم أن يقيم ميزانا يزن به أعمال الدولة في ضوء القانون الأخلاقي، دون أن ينسى الأسس التي تقوم عليها الدول، ويكاد يوجه قيم أخلاقية للتلاؤم مع تلك الأسس، إننا هنا ولاشك أمام أحد أفراد سلالة ميكيافلي فهو الذي أقرّ بوضوح ولأول مرة أن " الدولة قوة"، وأعلن " أن الدولة يجب أن تتابع قوتها كهدفها الوحيد، فما هو صالح لذلك الغرض يعد ملائما " عندما يحدد ترتشكي موقفه من هذه الفلسفة يرى بأنها "هي الحقيقة، ومن لم تبلغ به الرجولة مبلغا يواجه هذه الحقيقة ينبغي عليه أن يرفع يديه من السياسة[1] هي إذا فلسفة القوة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فلسفة أقيضت البشرية من حلم جميل عاشته ولو في مخيلتها – إنها الفلسفة التي وجدت في نتشه بعد ذلك ممثلها البارز فهو ومن دون التفات ينادي " الضعفاء العجزة يجب أن يفنوا، هذا أول مبدأ من مبادئ حبنا للإنسانية! ! ! ويجب أن يساعدوا على هذا الفناء!!! أي الرذائل أشد ضررا؟ الشفقة على الضعفاء العاجزين"، هذه إذا مقدمات فلسفية تجافي منذ البداية كل الاعتبارات الأخلاقية، ولا ترى النفع في شيء أكثر مما تراه في القوة- على اعتبار أن هذا المفهوم سيفهم فهما سياسيا حتى ولو. . لأنه لا يوجد نظام مستقل للظواهر السياسية- وعليه فإن لديه توريطات على صعيد التحليل السياسي، وفي علاقته بالتقديرات الأخلاقية.

نتشه: القوة بمعزل عن الأخلاق:

في كتابات نتشه الأخلاقية نلمس حملة شعواء، مركزة على الأخلاق مصحوبة بنقد عنيف لثقافة القرن 19 م، حيث يلخص ذلك في كلمة " العدمية الأوربية"، وهذا راجع كما يقول نتشه إلى أن الأوربي العامي في أيامنا هذه يمجد ويعظم صفاته الضعيفة كالرقة والمساواة والاعتدال والشفقة، وأنه لطيف وصبور، ونافع للمجتمع "، ومن هنا يحمل نتشه على كل الأحكام الأخلاقية التي أصدرتها الإنسانية مبينا الينابيع التي استقيت منها هذه الأحكام، فاضحا الأوهام التي وقعت فيها الإنسانية ليصل من هذه الحملة إلى تفحص أخلاق عصره، فيجدها مطبوعة بطابع الزهد الديني الذي كرسته- حسب رأيه المسيحية-

---

[1] د. عبد المعز نصر محمد- في النظريات والنظم السياسية، دار النهضة العربية (لم يذكر البلد)، (ب، ط) 1981، ص 115.

بدعوتها إلى تمجيد الحياة الآجلة، في مقابل التنكر للحياة العاجلة، التي هي الحياة الحقة، إن المسيحية تؤكد على عقيدة الخطيئة، وتأمر بالتفكير عنها بالصبر والتسليم والطاعة والانصياع، لهذا كله رفض نتشه، المسيحية سبب طابعها الرعاعي، ومن جراء القيم الشعبية التي تسودها[2] والتي يستغلها القساوسة والرهبان ليحتفظوا بسيادتهم على جمهور المساكين، إنّ هذه الأخلاق كما يقول نتشه " تطلب من الإنسان أن يميت نزعاته الحيوية، وذلك شيء مستحيل ومخالف للطبيعة الإنسانية، كما تطلب منه أن يسلك مسلكا عقليا خالصا، مع أن هذا مطلب صعب، فوق طاقة الإنسان، وضد طبعه الحيوي.

<u>أ)نظرية الأخلاق:</u> أما عندما يقوم باستعراض تاريخ الأخلاق فيقول " في أثناء رحلاتي التي قمت بها خلال أنواع الأخلاق الرفيعة أو الوضيعة التي سادت العالم، والتي لازالت تسوده حتى اليوم، لاحظت وجود عدة صفات معينة مقرونة بعضها ببعض، وظهرت دائما في وقت واحد، حتى أنني استطعت أن اكتشف وجود نوعين من الأخلاق: أخلاق للسادة، وأخرى للعبيد. . . وذلك لأنّ تحديد القيم الأخلاقية قام به إمّا جنس السادة المسيطرين. . . أو قام بهذا التمديد جماعة الأتباع والرعية، والعبيد المنحطين. . .[3]

إن أخلاقية الأسياد نابعة من تجاوز كل اعتبار للتضاد القائم بين الصالح والطالح، إنها وقبل كل شيء أخلاق الفضائل الحربية، التي يجد فيها الإنسان المستعلي نفسه بين أقرانه ولكنها تحتقر في نفس الوقت جماعة الطبقة الدنيا، وجميع الذين يفكرون تفكيرا منحطا، والأمر مختلف فيما يتصل بأخلاقية العبيد، التي تمجد كل ما يجعل الحياة محتملة بالنسبة للجميع كالتآخي ومحبة السلام. .

تاريخيا تبدأ أخلاق السادة مع العصر اليوناني الروماني- هنا يظهر نتشه كغيره محكوم بالمركزية الأوربية- حيث كان الإنسان القديم يشعر بنشوة كبرى، وفرحة عظيم، بارتكاب أشد أعمال البطش والقسوة، ويشعر بنشوة كبرى وفرحة عظمى، بارتكاب أشد أعمال البطش والقسوة، ويشعر بسعادة كبرى لا يضاهيها شيء عندما يشاهد مناظر صراع الثيران، وغيرها من المآسي، هكذا تعدو الفضائل الشريرة التي يتميز بها الأقوياء ضرورة للمجتمع، فالقسوة والعنف والخطر والحرب لها قيمتها العظيمة، فأعظم الرجال لا يظهرون إلا في أوقات الخطر- وربما هذا ما يفسر إعجابه بنابليون- لينتهي كل

---

[2] فنك أويغن، <u>فلسفة نتشه</u>، ترجمة إلياس بدوي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق [ب ط]، 1974، ص 150.

[3] بدوي عبد الرحمان، <u>الموسوعة الفلسفية</u> ج 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، ط، 1984. ص 510

هذا المجد بانتصار أخلاق العبيد وهنا يؤكد نتشه أن تمرد العبيد بدأ لأول مرة مع الشعب اليهودي، ثم فرضت هذه الأخلاق نفسها في المسيحية- وهكذا اجتاحت أخلاق الضعف والسلام والأمن، وهي أخلاق الطبقات المحكومة والمغلوبة على أمرها- أخلاق الأسياد حيث المخاطرة والقوة، فحل المكر مكان القوة، والشفقة مكان العنف والتقليد محل الابتكار وصوت الضمير محل الشرف والكبرياء، ومن هنا يحمل نتشه على الأديان معتبرا إياها منبع أخلاق الطبقات الضعيفة ومقياسا للأخلاق العامة، حيث أصبح العزوف عن الدنيا مقياس الفضيلة، وبهذا المنظور سوف يفسر تاريخ أوربا منذ 18 قرنا، تاريخ سمته الأساسية " إفساد العرق الأوربي" بـ: لجم الأقوياء، وإضعاف الآمال العالية، بالافتراء على السعادة التي تأتي من الجمال، إفساد كل ما هو متكبر رجولي، غازي ومسيطر. . . تلك هي المهمة التي أمرت بها الكنيسة البوليسية والتي كان يجب أن تأمر بها، إلى أن يفرض نفسه بالنهاية- حسب نتشه- نظام قيم تندرج فيه أفكار التخلي عن العالم وإماتة الحواس والإنسان السامي"[4] ولهذا سوف يغدو الدين- سماويا كان أو وضعيا – ضرب من الوهم الزائف، أو الخيال السقيم، لأن الشعور بالخطيئة هو الأساس الذي نشأ عليه، بل وحتى فكرة الأولوهية تصبح غير ذات معنى بالنسبة لنتشه، لأن " فكرة الإلوهية تمثل عقبة كؤود، توشك أن تلغي شخصية الإنسان، وتحول دون تأكيده لذاته" ويعود التاريخ كرته، فتظهر أخلاق السادة من جديد مع عصر النهضة الأوربية الذي تميز بالعودة إلى المثل العليا اليونانية، غير أن ذلك لم يعمر طويلا، إذا ستنتصر أخلاق العبيد من جديد مع حركة الإصلاح الديني، وهي حركة شعبية آثارها الضعفاء والعوام، وتعود أخلاق السادة عند نبلاء القرن 17 عشر و18 عشر ليقهرهم العبيد مرة أخرى مع الثورة الفرنسية، التي كانت ثورة للعامة والدهماء، وتلوح أخلاق السادة من جديد على يد نابليون، ولكن دون أن يدوم ذلك طويلا إذ سرعان ما تعود أخلاق العبيد من بعده لتحتل الساحة، على أن كل الفترات التي تلت المسيحية، تتميز- في نظر نتشه – بأنها في أساسها فترات تسودها أخلاق العبيد، وما ظهرت أخلاق السادة فيها إلا عرضا لتختفي سريعا تاركة ورائها التيار الأصلي يسير في ضعف وانحلال، هكذا يظهر أن الفارق بين أخلاقية الأسياد وأخلاقية العبيد قائم منذ أزمنة سحيقة[5]، وهذا راجع في الأساس إلى أن هناك تصورات للقيمة نابعة من حياة فياضة، وأخرى تنبثق من الفاقة والبؤس، أي من المرضى والمهزومين والمعذبين، إنه في الوقت الذي تتجه فيه أخلاق السادة إلى السمو والطموح إلى ما هو أفضل، إلى إرادة الحياة وإرادة القوة، يرى العبيد في السيد الشّر بعينه،

[4] شاتليه فرانسوا وآخرون، معجم المؤلفات السياسية، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 1997، ص1124

[5] أويغن، فلسفة نتشه، ص 154

وبما أنهم يلمسون العجز في أنفسهم فإنهم يلجؤون إلى قلب الأسماء، وذلك بتسمية الأشياء عكس مسمياتها، فالشعور بالعجز يسميه العبد " صبرا"، وعجزه عن إدراك الطموحات يسميه تواضعا. . والعجز عن الانتقام يسميه عفوا، يقول الضعيف فاتر الهمة " إن الحياة لا تساوي شيئا " وخير له أن يقول " آني لا أساوي شيئا "، ومن هنا كانت أخلاق العبيد(أخلاق المسيحية)، تتنافى مع قوانين الطبيعة وقوانين التطور، فالتطور والتقدم لا يتحققان إلا بإرادة الحياة، والقدرة على ممارستها والطموح نحو تحقيق الأفضل، من هنا يصبح البديل للأخلاق السائدة- أخلاق العبيد- هو إرادة الحياة وتحقيق " الإنسان الأعلى " الذي يثور على الأخلاق السائدة ويجسد في نظر نتشه المثل الأخلاقي في الأعلى.

ب) الإنسان الأعلى: بما أن الإرادة العامة ليست هي إرادة الحياة، وإنما هي إرادة القوة، فإنه تصبح الغاية من القيم التي تضعها الإنسانية ليست أن توفر لها السعادة أو اللذة أو المنفعة، أو ما شابه هذه الغايات الهيّنة التافه. . . فإنه ينبغي على القيم التي تضعها أن تعمل على السمو بمستوى الإنسانية، حتى نصل إلى خلق نوع جديد، لا أقول من الإنسانية، وإنما ممن هم فوق الإنسانية، فالإنسان الحالي – في نظر نتشه- لا قيمة له في ذاته، وإنما قيمة فإنه وسيلة إلى خلق هذا النوع الممتاز، إن نتشه هنا لا يبحث عما يحفظ الإنسان إنما يكشف على لسان زارادشت أن همه " أن يعرف كيف يتفوق الإنسان على إنسانيته"، دونما اعتبار للخير أو الشر " لأن الشر قد أصبح خير ما في الإنسان من قوة، ولذلك فعلى المرء أن يزداد ارتقاء في خيره وفي شره، فإن أعظم شر، إنما هو أعظم خير للإنسان المتفوق"، إذا الغاية من الإنسانية هي خلق هذا الإنسان الأعلى، ومن أجل هذا كله لابد للقيم الجديدة التي نضعها أن تساعد على هكذا خلق، وأول خطوة تمهد لوضع هذه القيم هي أن يبدد الإنسان هذه الأوهام الثقيلة الخطيرة التي أتت بها المذاهب الأخلاقية والدينية والفلسفية " فإذا تحرر من هذه القيود كلها فليعتمد على نفسه"، والحرية معناها أن لا يأبه الإنسان للعناء، والقسوة والحرمان، بل والحياة نفسها، وأن تكون لغرائز الرجولة، والنضال وحب الظفر، السيادة على الغرائز الأخرى مثل غريزة السعادة"، لكن كيف السبيل إلى هكذا إنسان؟

يرى نتشه أنه إذا أردنا أن نخلق الإنسان الأعلى فعلينا أن نشرف على التربية، ولا ندع الأمر فوضى للطبيعة، لأن طبيعة الحياة تعارض أفذاذ الرجال، وتميل إلى الفرد العادي. . . وتنتصر دائما للكثرة على الصفوة، من هنا فلا مجال في أن تختار لنا هذه الطبيعة الإنسان الأعلى وهنا يصبح الأمر حسب موكول إلى تحسين وسائل النسل والتعليم الذي يرفع من قيم الرجال، وعليه فأول خطوة في هذا الطريق هي مراقبة الزواج فيتزوج خير الرجال من خير النساء، أما الحب فهو حسب نتشه متروك لحثالة الرجال، إذ ليس الغرض من الزواج مجرد النسل، بل أيضا وسيلة للتطور والرقى، وبعد توفير حسن المولد، تكون الخطوة الثانية

لصيانة الإنسان الأعلى هي التربية القاسية التي تأخذ على عاتقها تدريب التلاميذ على تحمل المسؤولية، دون أن ينعموا بالراحة، ودونما تساهل من شأنه أن يضعف القوة الجسدية والخلقية، كما يجب أن يخلو التعليم من كل مظاهر الزهد والتقشف واحتقار الجسد، هكذا فبمثل هذا المولد وهذه التربية يرتفع – حسب نتشه- الإنسان فوق الخير والشر، ولا يتردد في اللجوء إلى العنف والقسوة في سبيل الوصول إلى غايته، بحيث يكون حسب نتشه شجاعا، وليس صالحا أو خيرا، فما الخير سوى الشجاعة، أو هو كل ما يزيد الشعور بالقوة، بل هو القوة نفسها، أما الشر فهو كل ما ينشأ عن ضعف " هكذا يصبح ما يميز الإنسان الأعلى هو المخاطرة وحب الكفاح، " ولا يجوز له الركون والسعي إلى السلام، ولهذا تغدو كل الحروب خير من المنظار النتشوي، رغم تفاهة أسبابها في الأزمنة الحديثة، وحتى الثورة تصبح خير- ليس في حدّ ذاتها كونها تؤدي إلى حكم العامة- ولكن الثورة كفاح، والكفاح يبرز حسب نتشه عظمة الرجال، الذين لم تكن لهم من قبل الفرصة الكافية، فمن فوضى كهذه يبرز أعظم الرجال كما برز نابليون من بين ركام وفوضى الثورة الفرنسية، إن الحيوية وعزة النفس هي التي تصنع الإنسان الأعلى، شريطة إيجاد الانسجام بينهما، فالإنسان الذي لا يريد أن يكون فردا من الجماهير يحتاج فقط أن يكف عن كونه متهاونا، ولينا مع نفسه، وأن يتخذ لنفسه هدفا كبيرا شاقا على الآخرين، "هكذا فلن نحب الحياة ونسمو بها إلا إذا جعلنا هذا الإنسان هدفا لنا ومكافئة لأتعابنا"[6]

إن الطريق الأسهل للوصول إلى الإنسان الأعلى حسب نتشه هي الأرستقراطية، وليست الديمقراطية التي ما هي حسبه إلا استمرار للمسيحية، فلقد كان المسيحي الأول، في أعماق نفسه ثائرا على كل ضروب الامتياز، فقد عاش، وكافح من اجل المساواة بين الناس في الحقوق"، إن المسيحية بهذا المنظور حربا مستقيمة على نموذج الإنسان المتفوق، وإفساد الغرائز الإنسانية، إنها أقوى ظاهرة في تضليل غرائز الإنسان الأوربي في تاريخ الفكر بخلقها- حسب نتشه- لعالم مثالي يعد انتقاصا من قيم العالم الأرضي الحقيقي، هكذا فمناهضة المسيحية تعتبر تبدلا في جميع القيم، هذا ما عبر عنه نتشه بقوله " إني أدعو المسيحية الكارثة الكبرى، والإفساد الداخلي الكبير، والغريزة الكبرى الحاقدة "[7] كما أدى غزو المسيحية لأوربا إلى القضاء على الأرستقراطية، كان اجتياح المحاربين " التيتون"، فرصة لأحياء الفضائل الرجولية القديمة، لا لشيء إلا لأنهم لم يكونوا مثقلين بالأخلاق بل كانوا

---

[6] ديورانت ويل، قصة الفلسفة، ديورانت ول، قصة الفلسفة، ترجمة، فتح الله محمد المشعشع مكتبة المعارف، بيروت، ط6، (ب ت) ص 534

[7] فنك أويغن، فلسفة نتشه، ص 164

متحريين، من جميع القيود الاجتماعية، هؤلاء الرجال الجبابرة هم الذين ينشئون الدول، وهنا يرفض نتشه نظرية التعاقد، إذ ما فائدة التعاقد مع من خلق بطبعه ليكون سيدا وعنيفا قويا، لكن من سوء لكن لسئو الحظ أن هذه الفئة أفسدتها الفضائل الكاثوليكية، والمبادئ الشعبية العامة، الناجمة عن الإصلاح الديني، والتزاوج مع الطبقات السفلى، من هنا تصبح الحرب أفضل علاج للشعوب التي دب فيها الضعف والترف والراحة والهوان، لا لشيء إلا أنها تثير الغرائز التي أفسدها السلام، وهذا ما عبر عنه زارادشت بقوله " يجب أن تحب السلم كوسيلة لحرب جديدة. . وتحب السلم القصير أكثر ممن الطويل. . . لقد صنعت الحرب والشجاعة من عظائم الأمور أكثر مما صنعته محبة القريب[8] من هنا فالبطل الذي يقهر نفسه، ويقهر الغير لا يطلب سعادته الشخصية، وإنما هو يخدم غاية تعلو عليه وهي إيجاد الإنسان الأعلى، إن الحرب ترياق لسموم تخنث النظم الديمقراطية التي ساهمت، حسب نتشه، في تتويج الفوضى والانحلال، وعبادة أواسط الناس ومقت التفوق، من خلال المساواة في الحقوق، رغم أن طبيعة الإنسان فيما يرى نتشه، تأتي عليه المساواة " أما أولئك الذين يدعون إلى المساواة، فإنهم يدعون إليها من منطلق عجزهم عن أن يكونوا جبابرة طغاة"[9]، إن الحياة من هذا المنظور غلبة وحلبة صراع بحيث سيطر فيها القوي على الضعيف، القوي له الحق المقدس في الحكم، والعامي (الضعيف) له مكانه، لكن ليس العرش طبعا، والناس أينما وجدوا بعضهم خلقوا قادة! ! وبعضهم أتباع! وهكذا سترضخ الأكثر وتشعر بالسعادة تحت إشراف هؤلاء الزعماء الأقوياء هكذا يريد نتشه خلق الإنسان المتفوق على إنسانيته، بالمجاهدة والتغلب على العناصر والعادات والتقاليد، وما توارثته الأجيال من العقائد الموهنة للعزم، لكنه ما يلبث أن يقف موقف الحائر المتردد عندما يحاول إقامة مجتمع لأفراده المتفوقين فيلجأ في كثير من الأحيان إلى التخلي عن احتقاره للرحمة والرحماء، حتى ينتهي إلى القول: " إن العالم الذي يتفوق على الإنسانية، إنما يعود بعد هذا الجنوح إلى بذل حبه للصاغر والمستضعفين"[10] إن نتشه وبعد تفحصه لسرائر الإنسان، وأهوائه، يضيق أفقه عندما يجد نفسه أمام المعضلات الاجتماعية، لأنه إذا أمكن للفرد أن يخط لنفسه منهجا يوافق هواه، فإنه لا يستطيع إلا أن يكون عضوا حيا في المجموع بعلاقاته مع الآخرين.

---

[8] كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان، (ب ت وط)، ص 410.

[9] ديورانت ويل، قصة الفلسفة، ص 543

[10] نتشه، هكذا تكلم زارادشت، ترجمة، فيلكس فارس، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، لبنان (ت، ط) ص 05.

إن مأزق الرؤية النتشوية يكمن في أنه كلف الطبيعة مالا تطيق، وجعل الحياة مستحيلة لأن الحياة لا تستطيع أن تحيى إلا على حساب حياة أخرى، لأن الحياة نمو، وهكذا فكأن الحياة إذا إرادة إستلاء وسيطرة على الأخريين، بل وحتى على نفسها، إذ لابد للإنسان أن يريد الزوال كي يستطيع أن ينشا من جديد، ومعنى هذا كله أن الحياة إرادة، بل قوة أكثر فأكثر إنها حربا لا فضيلة، تلك هي شرعية القيم الجديدة التي ستحل مع نتشه محل كل ما كان سائدا من قبل، وكلها صادرة عن فكرة تقديس القوة، لأنه رأي بأن إرادة القوة هي جوهر الوجود.

ج) إرادة القوة: إن مبدأ الإرادة والقوة أو إرادة القوة، واعتباره سر الحياة والكون يمثل حجر الزاوية في فلسفة نتشه، ولما كانت إرادة القوة لا يمكن أن تظهر إلا بواسطة الكفاح فإنها تبحث دائما عن ما يقاومها، وربما هذا ما يفسر إعجابه بتجربة الحرب الألمانية الفرنسية(1870- 1871)، إذ اكتشف وسط ما يصيب المحاربين من ويلات، وما يتعرضون له من أخطار أن الدافع لهم في صراعهم والغاية التي يستهدفونها من ورائه، تقوم أول ما تقوم على إرادة القوة " إن إرادة الحياة القوية السامية، لا تجد تعبيرا في صراع تعس من أجل الوجود، ولكنها تجده في إرادة الحرب، إرادة القوة، إرادة القوة العليا. . . وإلا فكيف يستطيعون- يقصد المحاربين- أن يحتملوا المسؤولية الرهيبة. . لكي يرفعوا شعوبهم، وأنفسهم إلى مرتبة التسلط والسيطرة"[(11)] غير أن هذا لا يعني اكتشاف نتشه لمبدأ إرادة القوة من تجربته هذه، بل الأمر مرتبط أكثر بتأثره بنظرية " شوبنهور" (1788- 1860)، عن الإرادة، إرادة الحياة، إرادة بلوغ حد أعلى من الحياة، إذ رأى شوبنهور أن " الإرادة هي جوهر الإنسان، بل وجوهر الحياة في جميع صورها، " وهي التي تعطي عن طريقا غرضها الثابت، وحدة لمشاعر الإنسان ووعيه وترتبط جميع أفكاره بعضها ببعض في انسجام دائم مستمر"[(12)] (12) وما رغبة الإنسان من هذا المنظور إلا تعبير عن الإرادة لا الذهن (العقل)، فهي السيدة وهو الخادم، ومن هنا كان من السير على نتشه في ضوء هذه الرؤية الفلسفية عن الإرادة أن يضع الأسس الخاصة لفلسفة الخاصة حول إرادة القوة، فكل شيء حي حسب نتشه يحاول أن يزيد من قوته، " إذ حيثما وجدت شيئا حيا، وجدت إرادة قوة، حتى في إرادة الخادم، هناك إرادة لكي يصبح سيدا، وليست الضرورة أو الرغبة، ولكن حب القوة هو شيطان البشرية"[(13)]، إن هذا المبدأ سوف يصبح مع نتشه، مقياس القيم الجديدة، بل حتى تحديد الطبقات والمستويات سوف يخضع لهذا المبدأ، "وليس شيء في الحياة ذو قيمة غير درجة القوة، إن القيمة هي أكبر مقدار من القوة، يستطيع الإنسان أن يحصل عليه[(14)] وفي غمرة النشوة يحاول نتشه تعقب هذا المبدأ في كل ما عالجه من مواضيع وهو يقول في هذا " إن

---

(11) عبد المعز نصر محمد، في النظريات والنظم السياسية، ص 124

(12) ديورانت ويل، قصة الفلسفة، ص 402

(13) نتشه، هكذا تكلم زارادشت، ص 125

(14) بدوي عبد الرحمان، الموسوعة الفلسفية ج 2، ص 514

كل حيوان – بما في ذلك الإنسان- يسعى بغريزته إلى أقصى ما يستطيع تحقيقه من ظروف ملائمة، يتاح له في ظلها، أن يسمح لكل قوته أن تعبر عن نفسها، وتبلغ منتهى الوعي بقوتها " ولا يتحدث نتشه هنا عن السعادة كغاية وإنما همه الوصول إلى القوة، إلى العمل، بل أقوى عمل، وهكذا فبمقدار شعورنا بالحياة والقوة يكون إدراكنا للوجود، ولعل هذا ما جعله يصدح عن فكرته المتطرفة " الضعفاء العجزة يجب أن يفنوا"، إنّ الضعيف بالنسبة لنتشه، هو المضطرب العديد الوحدة، أما القوى فهو الذي " تتجه فيه كل القوى، متوترة نحو غاية موحدة، الضعيف هو رجل التساهل والمساومة، الذي ليس له قدرة على مقاومته الإغراء بل يصبح سلبي إزائه"، ولكن القوى هو الذي يقاوم الإغراء " لا ليبعده، بل لسيطر عليه ويخضعه لذاته[15] وهو بهذا يزداد قوة، لأن إرادة القوة اصطدمت بأكبر مقاومة وبالتالي شعرت بأعظم انتصار إن الضعيف من المنظور النتشوي يريد السلام والوفاق والحرية، ويريد أن يحيا حياة المحافظة عل البقاء، بينما القوي يفضل المخاطر، وعلى ذلك يكون شعاره " الحياة خطرة "، ولما كانت غايته الفوز فإنه يأبى كل شفة على المساكين، ويجد في الفوز غبطته الخاصة، هكذا اتخذ نتشه من هذا المبدأ مقياسا يحكم به على جوانب النشاط الإنساني ويطبقه عمليا في ميادين السياسة والأخلاق والدين. . . ومن هنا جاءت صورة "السوبرمان" ممثلة لمبدأ إرادة القوة في السلم والحرب، في ضوء هذه الرؤية سوف يصبح السلم مقدمة للحرب- الحرب الباردة –مثلا، بل حتى الحرب تصبح جيدة عندما تجد لها المصوّغات الجيدة، من هذه الرؤية الاستعلائية الممجدة للحرب والرافعة للواء القوة سوف يحاول نتشه إجراء نقد جذري للسياسة والأخلاق والدين، فالأخلاق السائدة آنذاك في أوروبا عموما وألمانيا خصوصا كانت حسب نتشه أخلاق اليهود " فاليهود وهم شعب " ولد للرق"- حسب تعبير نتشه- وهم الشعب المختار بين الأمم، كما يذكرون ذلك هم عن أنفسهم، قد حققوا معجزة قلبا القيم، التي بواسطتها اكتسبت الحياة على الأرض سحرا جديدا، وخطرا مدة ألفي عام. . . وفي هذا القلب للقيم، بدأت ثورة العبيد في الأخلاق، والتي استطاعت حسب نتشه أن تنتشر لأنها تخاطب في الإنسان غريزة القطيع، الأمر الذي وظفه أصحاب السلطة الدينية والسياسية في تثبيت حكمهم، ومن هنا جاء تثبيط العزائم، وضبط النزوع الاستقلالي، خشية زعزعت النظام القائم، هكذا فإذا كان نتشه يهاجم أخلاقيات العبيد، المثقلة حسبه بالخطيئة، والضعف، ووخز الضمير، فإنه يشيد بكل ما هو ارستقراطي، يدعو إلى القوة، ويعلي من شأن الامتياز والتفوق، وإزاء انتشار الدعوات الداعية إلى الديمقراطية والاشتراكية راح نتشه، يتمثل الخطر المحدق بالإنسان عموما، وأوربا خصوصا، فهو يرى في الديمقراطية شكلا منحطا من أشكال التنظيم السياسي، يحط من مواهب الإنسان وقيمته، كما يرى في الاشتراكية محاولة لخلق إنسان القطيع، الذي لا يحس مطلقا باستقلاله عن الجماعة، ووسط هذه المحنة التي عاشها نتشه من أعماق نفسه، من خلال إشفاقه على الإنسانية

---

[15] المرجع نفسه، ص، 515

من السقوط، يعلن أن الخلاص لا يكون إلا عن طريق فلاسفة جدد، يقودون، ويضعون القوانين" إن الفيلسوف بوصفه كذلك، يكف عن الطاعة، ويستبدل الحكمة القيمة، بالقيادة، ويحط القيم القديمة ويخلق قيما جديدة. يرى نيتشه في الفلسفة الحديثة ازدواجية لأنها تخفي النزعة الحقيقية للخطاب الفلسفي بادعائها أن هدفها الأول البحث عن الحقيقة. فالهدف الحقيقي للفلسفة والفلاسفة، كما يؤكد نيتشه، بناء رؤية محددة للعالم تتوافق مع النزعات الذاتية لأصحابها، ثم العمل لإعادة تشكيل العالم وفق هذه الرؤية. وبالتالي فإن الهيمنة وإرادة الهيمنة هما الباعث الأساسي للتفكير الفلسفي، كما يرى نيتشه.

ينتهي نيتشه في تحليله للفكر الغربي والمجتمع الغربي الحديث إلى اعتماد مبدأ" إرادة القوة " مبدأ تأسيسيًا، يفسر من خلاله الحضارة الغربية- بل التاريخ الإنساني برمته. ويعتمد نفس المبدأ لتفسير حركات التحرر الأوروبية والنظام الديمقراطي الناشط في العالم الغربي، ويستنتج نيتشه أن الممارسة الديمقراطية والحريات العامة التي ينادي بها الغرب لم تكن في يوم من الأيام هدفًا بحد ذاتها، بل عرضًا لتنامي إرادة القوة في أوربا[16]، فالهدف الأول لجهود الأفراد والجماعات فالمجتمعات الأوربية هو الهيمنة والسيطرة وفرض الذات على الآخر، وبالتالي فالقبول بالحوار وبالحلول والمواقف الوسطية وفق آليات القرار الديمقراطي يعكس في جوهره عجز أي من القوة السياسية المتنافسة عن السيطرة وإخضاع الآخر من خلال الفرض الكامل للذات. وبالتالي فانّ التنازلات التي يقدمها الخصوم السياسيون والتي تنعكس في الممارسة الديمقراطية ناجمة عن تكافؤ القوة، وانتشارها في مختلف أجزاء المجتمعات الغربية الحديثة، وعدم انحصارها في فئة واحدة مهيمنة.

الخاتمة

يبدو مفهوم إرادة القوة عند نتشه مفهوما مليء بالإيحاءات، يصل إلى حد الغموض عندما لا يعترف إلا بالقوة كغائية نهائية للإنسان، وهذا الأمر بالخطورة بما كان، فمشكلة الأخلاق بالنسبة له، إنما هي في الأساس مشكلة الحقيقة والتطابق مع إرادة القوة بوصفها جوهر الحياة.

إن الأمر واضح عهد السفسطائيين أن من يملك الوسائل يحق له أن يستخدمها لإرضاء حاجياته ويعمل على جمع وضم ماستطاع من قوى الغير لكي يزداد قوة، ففي محاورة الجمهورية يرى - " تراسيماخوس - أن العدالة ببساطة هي مصلحة الأقوى. . . وأن مصلحة الأقوى في كل مكان هي العدل"[17]، قد لا نكشف سرا إذا قلنا أن هذه النظرة لم يطرأ عليه الكثير من التغيير إلى حد اليوم، بعدما أخذت لها التزكية من الميكيافلية من خلال

---

[16] لؤي صافي، مفهوم الحرية في الغرب بين النظرية والممارسة، مجلة إسلامية المعرفة السنة، الثامنة: العددان31- 32، شتاء 2002 وربيع2003، ص 240

[17] أفلاطون، الجمهورية، ترجمة نظلة الحكيم ومحمد مظهر سعيد، دار المعارف، مصر، ط2 (ب ت)ص 30.

الفكرة القائلة " أنه إذا راعى الأمير أو الأمة العدالة فإن الأمراء الأخريين الذين لا يؤمنون إلا بالقوة والعنف والغدر والجشع، سوف يحكم عليها بالعبودية"، وهذا ما هو معمول به اليوم في نطاق الحروب الإستباقية أو الوقائية كما يسميها أصحابها.

الواقع أن عبادة القوة على نحو ما دعا إليه نتشه وبعض دعاة النزعة الحربية ليست سوى تعبير عن عجزها عن استبقاء مثلنا العليا صامدة وجها لوجه، أمام هذا العالم المعادي لها، وكأننا هنا بإزاء صورة جديدة من صور الإذعان للشر والتضحية بالخير، لأن القوة بلا فكرة قوة عمياء تجري سريعا إلى حتفها، لأنها تبدد طاقاتها وإمكاناتها بعدم استخدامهما، وتوزيعها بحكمة وتدبير.

مما لا شك فيه أن بداية القرن الحالي لا تختلف عن القرن الماضي، فالعالم يعيش أزمات سياسية، وحروب طاحنة في ظل وجود سلطات سياسية عدوانية لا تجد لها متنفسا إلا في الحرب، من هنا سوف تتبلور أزمة حاسمة هي أزمة الحرب والسلم، الموت والحياة، لقد ازداد جنون طغاة الحرب وأعداء السلام والحياة وفاق كل حدود التعقل، مما أغرق العالم في موجة من العدوان الجنوني المزود بكل الأسلحة التكنولوجية المتطورة، فما يحدث اليوم في الكثير من بقاع العالم واستخدام الأسلحة الفتاكة لتدمير معالم الحياة، إن الجنون والشر أصبحت لهما الريادة، وهما يقودان الإنسانية نحو الخراب فنحن إذا " هالكون إذا لم نتمكن من العيش متضامنين "، يجب على من تثيرهم القوة، ويستهويهم حب السيطرة الكف عن اعتبار الحياة مغامرة، لأن الحرب شر، واستخدام القوة يجب أن يكون موضع تنديد، واستنكار.

إن السياق الدولي خصوصا بعد الأحداث الأخيرة التي عرفها القرن الـ 21 يفرض علينا ولاشك إعادة مفهوم السياسة من جهة والقانون الدولي من جهة ثانية، لاشك أن أحداث 2001/09/11 كان لها بالغ الأثر في اعادة ترتيب الأوضاع في العالم على نحو يؤمن بشيء أساسي هو البقاء للأقوى وليس للأصلح إنها ببساطة أخلاق العولمة.

لكن إذا كانت علاقة القوى هي الأساس الرئيسي الذي تقوم عليه العلاقات بين الدول اليوم كما في الماضي، وعندما نعلم أن منطق الحرب وهو المتحكم في تغيير علاقات القوي بين الدول ندرك الخطر المحدق بالإنسانية من جراء الأنانية المفرطة، وعدم الاعتراف بأي قانون أخلاقي في المسائل السياسية، على اعتبارات أن هذه الأخيرة لعبة يسمح فيها باستعمال كل الوسائل دونما أدنى اعتبار لخصائص هذه الوسائل، يحق لنا التساؤل عن علاقة السياسة بالأخلاق على المستوى الدولي، وهل بالإمكان تصور مستقبل مشرق للإنسانية، بحيث تحترم حقوق الدول ومعها حقوق الإنسان؟